المرأة في الأدب الاصلاحي:

لقد كانت وضعية المرأة (مثل الطرقية والمستعمر..) مُسيَّجة بترسانة من الممنوعات والتقاليد والمحرمات قد يواجه متعديها بتهمة الانحلال ونحوها. **وبعض الأوائل الذين زاروا فرنسا** كمحمد السعيد علي الشريف لم يتقبلوا وضع المرأة المتطور في فرنسا فكتب في رحلته: "*كيف أنهم على رأي نسائهم وتحت قبضتهن، مع أنهن ناقصات عقل ودين .. إنما النساء فتنة يلعبن بعقول الناس.. وما من فتنة في الدنيا إلا وسببها امرأة نعوذ بالله من شرهن ومكرهن..*" (الرحلة: جريدة المبشر، عدد 138 جوان 1853 ص: 4). ومن الواضح أنه لم تكن لهؤلاء رؤية إصلاحية بقدر ما هو التعبير عن الصدمة والرغبة في التغيير. وسيعمل الاستعمار على تكريس صورة نمطية بشعة للمرأة الجزائرية اشكل هذه الأفكار جزءا منها.

مع ذلك، ولدت مواقف أخرى في الجزائر، ولا يمكن إلا أن نتذكر ما أسلفناه عن كتاب (*الاكتراث في حقوق الاناث*) الذي ألفه (قبل قاسم أمين) **مصطفى بن الخوجة** سنة 1895، وكذلك دعوة المجاوي إلى تعليم المرأة واحترامها ومثله عمر بن قدور .. وغيرهم. مما يدل على إحساس النخبة مبكرا بالوضع المأسوي والكارثي للمرأة الجزائرية. لقد لاحظ أفضلية الفرنسيات على الجزائريات مركزا على شغف الجزائرية بالدجالين والمشعوذين ولجوئهن إليهم، كما أن الفرنسية تختلف مع زوجها وتعالج الأمر بشكل مختلف، والسبب يرجع في نظره إلى الجهل، فالفرنسية تغذت بلبان المعارف بينما الجزائرية غارقة في الجهل والأمية. ورغم أنه لا ينساق وراء فكرة حقوق المرأة على علاتها، إلا أنه يؤكد حقوقها التي أعطاها لها الاسلام وأكدها، خاصة حق تعلم (العلوم الدينية) كما يتعرض لحقوقها المادية والقانونية، ويذكّر القراء بضرورة الحياة الطيبة بين الزوجين وعواملها.

لكن كان للاستعمار حسابات أخرى، وعمل على تغيير وضعها "***بقناعة أنه لا يمكن تغيير أي مجتمع إلا بتغيير حال المرآة***" (سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 337/6)، فبدأت "*عملية التعرف والاتصال، ومحاولات كسر الحواجز بين "المتقدمات" السافرات المتحررات القادمات من أوروبا وبين المتخلفات القابعات المغلوبات على أمرهن في الجزائر*" (م.س 338/6). ويكفي أن نقرأ الهدف الحقيقي في كلام ريني قارنيي (Ch Rene-Garnier) في كتابه (احتلال الاسلام عن طريق النساء la conquête de l'islam par les femmes) سنة 1911 في قوله: "*إن أهمية الأم عند المسلمين عظيمة جدا، فهي التي تنشئ الأطفال ذكورا وإناثا.. إنها هي التي تربيهم وتعلمهم.* ***فمن الواجب إذن التوجه إلى أمهات العائلات المسلمة لنبث فيهن روحا فرنسية، حتى يقمن بدورهن بتشكيل الأرواح البريئة لأطفالهن الصغار وفقها...*** *وأنتن وحدكن سيداتي، أنتن الفرنسيات، قادرات حين يلزم الأمر بكل بطولة وكرم وإخلاص؛ أنتن من يمكنكن باهتمامكن بأخواتكن المسلمات التعيسات، الوصول إلى قلوبهن وامتلاكهن بفضل إحسانكن إلى الأبد. ذلك لأنهن في أشد الحاجة للاعتناء بهن ولإكسابهن عقلية،* ***هاته المخلوقات التعيسة التي تعامل أسوأ قليلا من الكلب لكن أفضل من الحصان***" (نقلا عن: *Femmes dans la tourmente coloniale: Naima Kitouni Dahmani,*

(*in Pluriels, 1996, p.42*). وهذا الكلام لا يحتاج إلى شرح إذ يغيب فيه كل مسعى إصلاحي بل مجرد خطة لتغيير وضع المرأة وفق الأهداف والمنظور الكولونيالي.

في إحدى قصص الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو (مع حمار الحكيم)، يدور الحوار الآتي:

"*قال: هل تريد أن نطرق موضوع المرأة؟*

*قلت: كُنْ مرتاحا من هذه الناحية، إنه **لا وجود للمرأة في بلادنا***

قال: عجبا.. أتعيشون بدون نساء. وكيف تتناسلون؟

*قلت: **لدينا آلات للنسل نحتفظ بها في بيوتنا**.*" (البصائر، 1949، عدد 64، ص: 151).

وهذا كلام جريء جدا في زمانه، لكنه اختصر نظرة المجتمع إلى المرأة آنذاك. وقد لاحظ النقاد هذه الجرأة في فكر وتعبير حوحو، (سعد الله: تجارب في الرحلة والأدب، ص:118، أحمد منور، م.س، ص:39، السعيد بوطاجين: مقدمة نماذج بشرية- كتاب الدوحة 2014- ص:14، ..).

توضح باحثة جزائرية أنه فيما بعد "***ظهرت دعوة حارة .. ترمي إلى النهوض بالمرأة الجزائرية وإخراجها من قبو الجهل والتخلف، وقد تجلت على ألسنة الشعراء والكتاب الاصلاحيين،** الذين أدركوا مكانة المرأة ودورها الخطير في المجتمع، وفي تنشئة الجيل وتربيته للمستقبل، فراحوا يدعون لتعليمها، ويؤكدون على المنافع التي سيجنيها المجتمع من ذلك*" (عجناك- بشي- يمينة، المرأة في الشعر الاصلاحي الجزائري الحديث، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، عدد2014/19، ص: 142-143). فمن الأوائل **أبو يعلى الزواوي** (1862-1952) وقد حارب التعصب والتضييق على المرأة، ويقول (سنة 1924) : "*وبالجملة فلا تفصل المرأة ولا تتعطل المصلحة من الأعمال والأشغال وبالأخص التربية والتعليم والحال أن النساء أكثر من الرجال **ولا يليق أن تكون المرأة عضوا أَشَلّ في الهيئة الاجتماعية الإسلامية***" (*الزواوي: الاسلام الصحيح، تح سعد الله، ص: 56-57*). وبالفعل فإن جمعية العلماء المسلمين حملت لواء الدعوة إلى احترام المرأة وتعليمها لكن في نطاق أحكام الشريعة الإسلامية، ولهذا لم تتقبل كتاب الشيخ التونسي الطاهر الحداد (امرأتنا في الشريعة والمجتمع وانتقدوه بقوة)، خصوصا البشير الابراهيمي.

ومن الطبيعي أن يحتضن الشعر - مثلما حدث في المشرق- هذه الحركة. فمن حيث المبدأ ترسخت فكرة أن النهضة لا تتحقق بالرجل فقط، وكان الابراهيمي من أقوى من عبروا عن ذلك في أرجوزة طويلة (*آثار البشير الابراهيمي 131/4*):

كِتمانُها غَبْــن وغِـشٌ وضَــرر   لا تنسَ (حوَّا) إنها أخــتُ الذكَـر
تَحمل ما يحملُ من خير وشــر   تُثمرُ ما يثمر من حُـلو ومُـــر
وكيفما تَكَوَّنــتْ كان الثَّمـــر   وكلُّ ما تَضعُــه فيها استقَـــر
فكيف يرضى عاقل أن تستمر   مَزيـدَة على الحواشي والطُّـــرر
تزرع في النشء أفانيـن الخَوَر   ترضعُـــه أخلاقَـــها مع الدِّرَرْ

وإنها إن أُهمِلَت كان الخطر كان البلا، كان الفنا، كان الضرر

.. ومنعُها من الكتاب والنظر لم تَأتِ فيه آيةٌ ولا خبَر

والفُضلَيات من نِسا صدرٍ غَبَر لهنَّ في العِرفان وِرْدٌ وصَدر

وانظر –هداك الله– ماذا ينتظر مِن أمة قد شَلَّ نصفَها الخدر

وانظر فقد يَهديك للخير النظر وخذ من الدهر تَجاريب العِبر

هل أمةٌ من الجماهير الكُبَر فيما مضى من القرون وحَضر

خَطَّتْ من المجد ومن حسن السير تاريخها، إلا بأنثى وذكَر؟

ومن يقل في علمها غِيٌّ وشَر فقل له هي مع الجهل أَشَر

وتعلمها وتطورها في نظره هو حتمية تاريخية بالنظر إلى واقع الحال:

واعلم بأن المنكَرات والغِيَر تَدَسَّست للغُرفات والحُجَر

وإنها قارئَة ولا مفَر إن لم يكن عنك فعَنْ قومٍ أُخَر

بل قد تحقق المرأة ما لم يحققه الرجل، يقول الربيع بوشامة (1916 - 1959) (الديوان، ص:69):

نَهضَةُ الشعب مِن جميعِ بَنيهِ رُبَّ أُنثى أَجْرتْ علينا انقلابا

لكنه عارض السفور (الديوان ص:231):

قُلْ لِمَن يبغي السُفورْ وعلى العاد يثور..

وكتب الهادي السنوسي الزاهري ونشر في كتابه (شعراء الجزائر، 195/1) قصيدة: (الفتاة الجزائرية) قدم فيها صورة أخرى تبين تطلع الفتاة إلى العلم والتغيير:

أخذتْ تَمُدُّ إلى النهوض الجِيدا لمَّا رأتْ علَمَ الإخَا مَعقُودا

ومشَتْ تُجَددُ للبناتِ مَودَّةً نحوَ البنين الطالبين صعودا

بِنتٌ تَمُتُّ إلى العروبَة نِسبةً حسناءُ تُخجِلُ في الجَمَال الغِيدا

تَفْتَرُّ عن بَرَدٍ إذا أبصرتَهُ أَبصرتَ منه اللؤلُؤَ المنْضُودا

.. إنّا بَناتَ الشعبِ في أُمّيَّةٍ مَلأتْ رؤوسَ الناشئاتِ خُمودا

ومشَت بها في الناشئين جهالةً صاروا بها بينَ الفِرنجَة دُودا

كانت لنا في الغربيات مكانةٌ تُرعَى، فأصبحنا لهُنَّ عبيدا..

والملاحظ أنه فسح المجال في المقطع الأخير للمرأة لتتكلم بنفسها عما يختلج في نفسها.

ومن أقوى النصوص وأشهرها في الشعر الجزائري الحديث قصيدة محمد الصالح خبشاش (1904– 1939) تلميذ ابن باديس، ورغم أنه لم يكن هو الآخر من دعاة سفور المرأة، إلا أنه طالب بتحريرها وتحرير عقلها وإرادتها، يقول (شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الزاهري، 94/2):

تَركُـوكِ بين عَبَـــــاءةٍ وشقاءِ   مَكْؤوبةً في الليلة اللَّـــيْلاءِ
مَغـلولةَ الأيدي بأَسْـــوإِ بقعَـةٍ   مَحْفوفةً بكَتَـــــائب الأَرْزاء
دَفَنوكِ من قَبْل المَمات، وحَبَّذا   لَو متِّ قبل تَفاقُـــمِ الأدْواء
مَسجونةٌ مزْجُـورةٌ مَحـــــرومةٌ   مَحفوفةً بمُلاءةٍ ســـــوداء
ماذا جَنَيتِ على الزَّمـــانِ وأهلِه   حتى رَمَوْكِ بطعْـــنةٍ نَجْلاء
لَهْفِي على الجنسِ اللطيف تداولَتْ   عنه الرياحُ بأرضِنا الجَدْبـاء
لهفي على العُرُبِ الحِسانِ تَضاءَلَت   أنوارُهنَّ فَتِهْـنَ قَيدَ عنَـــاء
لهفي على بنتٍ تعيش شَقــيةً   حتى تُصادفَ هـادمَ السَّراء
أَتُرى أَرَى فتَياتِنا وسْطَ الــمَدا ـــــــرِسِ، يَرْتشِفْنَ سُلافَة القُراء
أترى أرى فَتياتِنا عَـــونًا إلى   شُبّاننا في الســــاعة اللَّأْواء
ولقد رأيتُ جماعَةً تُعْـــزَى إلى   نَهْجِ الهُدى والمِلَّةِ السَّمحاء
قَدْ أَوْعَدُوا، وتَجَهَّموا، وتَهَدَّدُوا   مَنْ حَلَّ قَيدَ حَليفةِ الأرزاء
إنّي لَأعتقِـــدَنَّ أنَّ عقولَـــــهم   مَمـزُوجةٌ بمُجَمّدَات المـــاء
فَهلِ الشريعة حَرَّمتْ تعليمَــها   يا نُخبَـة الأشياخ والصُّلَحاء

ومنها قولـه:

فإلَى مَتى هذا الحجاب، إلى متى؟   أَإلى التَّلاَشي؟ أم ليوم لقاء؟

وهذا نص قوي مقارنة إلى زمن كتابته. بؤرتُه هي الحالة القاتمة للمرأة الجزائرية آنذاك والتي هي الموت، بل هي أسوأ منه في نظره، حيث حياتها بين عباءة سوداء وعيش بائس ثم موت مفني. ولتطاول مدة هذه الحال تساءل إن كان سيعيش إلى زمن أفضل حيث الفتاة الجزائرية تؤم المدارس وتعين الرجل في أيام الشدائد، لكنه يلتفت إلى من يهددون من يدعوا لفك أغلال المرأة ويدعون أنهم على الصراط المستقيم فيصفهم بالجامدين لأن الشريعة الاسلامية لم تمنع تعليم الفتاة. ورغم النقاش الذي دار حول تبني خبشاش لسفور المرأة من عدمه، فإن الحجاب وفق سياق النص مرتبط بدلالة الاحتجاب وعدم الخروج أكثر مما يدل على السفور.

لكن النقاش كان كبيرا بين دعاة السفور والتحرير المطلق للمرأة (خاصة الاندماجيون والمثقفون ثقافة فرنسية) وبين الاصلاحيين ومن إليهم. وخلال كل ذلك بدأت تلوح ملامح تغير في سلوك المرأة بتأثير أخلاق المستعمر والوضع

الاجتماعي، مما جعل البعض يشكك في كل ما يقترح لتقدم المرأة وأصر على الارتباط بتربيتها بالعلم والدين فحسب. فمحمد العيد يضيق بما يراه من فساد فيكتب (الديوان، ص: 178 ونشرت في الشهاب سنة 1939):

لَيتَني كنتُ سائحا، مَوطِني البِيـــــــــدُ، ولُبْسي المَسُوح والأَهْدامُ
وطعامي النباتُ مِن كل نوع، ومَبيتي الكهوفُ والآكَـــــامُ
.. عَلِّموا المرأةَ الحقائقَ في الديـــــــــنِ فقد طَوَّحَـت بها الأوهـام
عَلِّموها كَيفَ النظامُ وكيف السَّعْـــــــــــــيُ في بيتها وكيفَ القيامُ
عَلِّموها كيفَ الرعايةُ للطفـــــــــــــل وكيف التلقيـنُ والإلهـــامُ
عَلِّمُـــوها كيـفَ الوقايـــةُ مـما، هاجَمتْـــها بِشَـــرِّه الأيـــامُ
.. كيف تنجو من الشرورِ نساءٌ لا يُـــوارِي وُجوهَـــهُنَّ لِثامُ
صار خُـلْقُ العَفافِ أَنْدَرَ خُـلْقٍ وتَفَشَّـــى الفُسوقُ والإجرامُ
عِصْمَة المرأةِ احْتِجابٌ وَصَونٌ وإِبـاءٌ وعِـفَّةٌ واحتِشـــــامُ..

فرغم البداية ذات المنزع الرومانسي، إلا أن هذه القطعة أشبه بمقال، أغرقت في صرامة النثرية واللهجة الخطابية المبالغ فيها، وقد تكون صورة وافية للشعر الجزائري في مرحلته الأولى خلال الثلاثينات. إنه يتمنى لو ترك المجتمع وهام في القفار بعيدا عما يراه من تفسخ يلمسه في ترك المرأة للاحتجاب والستر والاحتشام وحتى تغطية الوجه، ووفق برنامج الاصلاحيين فإن تربية وتعليم المرأة على الدين وتدبير المنزل ورعاية الأطفال هو المطلوب لتجنب هذه الظواهر.

وقد كتب محمد العيد فيما بعد(الديوان، ص: 279):

ما بالُ سيرِ فتاةِ العصرِ مُنحَـــرفًا يَهوي بها في مَهاوي الإفكِ والزور
إنّ الجزائـرَ أمسَـــتْ بِنْتُها غَـرَضًا لكلّ رامٍ بسَهمِ الغـــيّ مَأجـــور
ما بالُـها هَجَـــرتْ آدابَ مِلَّتِـــــها ما بالُها أَعْرضَتْ عن خَيرِ دُستور
إنّ الذي بَـــرَأَ الجِنسين خَـــــوَّلَها حُقوقَها في كتابٍ منهُ مَســـطُور
لوْ أنَّها اقتَبستْ من نُـوره وجَنَـــتْ مِن رَوْضِهِ الْتَحقَتْ في الطّهرِ بالحُورِ
عافَت تقاليدَهُ المُثلَى وقد سَطعَـت أنوارُها وارتَمتْ في كُـلّ دَيجُور
ما جُلّ آرائِها المُستحدثَات سوى، مُستَورَداتٍ، مَداها غيرُ مَشكور
في كلّ مرحـلةٍ تزدادُ ظُلمتُـــــها في الرأيِ، فَاقْرأْ عليـها سُورةَ النور.

إذن، فقد انحرفت فتاة الجزائر العصرية في نظره، وانجرفت إلى دعاوي المأجورين المستلبين، معرضة عن القرآن الكريم وهديه وحقوقها المقررة فيه وأدب أمتها، ولو أنها اهتدت به لكانت ملاكا طاهرا، بينما تتبع الأفكار المستحدثة المستوردة

فتزداد ظلاما فكريا ونهاية مؤلمة، ولا سبيل لإعادتها إلى جادة الصواب إلا بالقرآن الكريم. وقد شحن محمد العيد قطعته بمضمون إسلامي ووطني قوي، وبتنفير حاد من الأفكار الحديثة، وكانت سورة (النور) في الأخير هي المحطة والحاجز والدستور لأنها تضمنت قضايا المرأة المختلفة، ففيها في نظره الاجابات عن كل الأسئلة.

وبعيدا عن كل هذا، سيحول الشاعر الشهيد الربيع بوشامة النقاش، وسيأخذ صورة المرأة–الأم ويفحص واقعها في قصيدة نشرها بمناسبة (عيد الأمهات) في جريدة البصائر (*عدد 193 لسنة 1952، ص:7*)، وهي تعيد المجتمع إلى القضية المركز؛ أي مواجهة المستعمر وإبراز جرائمه في حق الأمومة، يقول:

تِلْـكَ الأُمُومةُ، عندَ قومٍ تُعْبَدُ يا ليتَـها فينا تَرَى ما يُسعِـــدُ
جَعلوا لها عِيدًا أَغَــرَّ مقدَّساً، يُعلَى به تَـذكَـــارُها ويُمَجَّـــدُ
وتَهُبُّ أقـلامٌ وأَلْسِنةٌ فِصـــــــــــــاحٌ تَجْـتَلِي آثارها وتُعَـــدِّدُ
وتَسوقُ آيـات الوَفـا لعُهُودِها الـــــــــحُسنى، وتُبنَى ذكرياتٌ تَـخلُدُ
غَالُوا بها في العالَمينَ وأَغرَقُوا في البِرِّ، حتى كادَ بعضٌ يسجُدُ

هذا هو تعامل الغرب مع الأم، معبودة رسَّموا لها عيدا خاصا بها وفيه تُمجد وتُخلد ويُنوه بأعمالها وإنجازاتها حتى كادت تُعبد حقا ويُسجد لها. وينتقل إلى الصورة الأخرى، الأم الجزائرية المستضعفة والمستعمرة:

وَجَفَوْا أُمومَةَ بائسٍ مُستَضعَــفٍ نِضْوِ القيــودِ فُــؤادُهُ مُتبَــدِّدُ
واسْتسْخَروها دونَ رُحْمَى، وازْدَرَوْا لَهَفَاتها الحَرَّى، بلَعنٍ تَصعَــدُ
.. ورَمَوْا بها في المهلكَات ومثَّلُوا بحَياتها، وهي المَـلاكُ الأسعـدُ
.. أُمُّ الدَّخـيلِ مَصُونَةٌ تُرعَى، وأُمُّ بَنِي الحِمَى مُزرَى بها، لا تُرفدُ
تِلْـكُـمْ تُلاقِي رحمــةً وكرامــةً أبَـدًا، وهَـذي دُونَــها تُستَــعبَدُ
أُمٌّ بِغَيْـرِ أمُـــــــومةٍ مَرْعِيَّــةٍ يَا لَلشقا والهَوْنِ، كَمْ ذا تُفرِدُ!؟

هذه أم أخرى، يعرضا الشاعر في مقابل الصورة المبهرة الأولى. فرغم أنها (أمّ) و(ملاك أسعد) وهو ما يتساوى فيه البشر، إلا أن المستعمر لا يعترف ببشريتها، فهي مجرد شيء يسخّر ويرمى وكائن يُستعبد، ذنبها أنها أمُّ أصحاب الأرض، أما أم الدخيل المحتل فهي صاحبة العيد الذي أنشيء من أجلها.

يا أمّ أنتِ كريمَـة موصولَــة فينا، وذِكرُكِ مُستطابٌ أَحمدُ
كَتبتْ لكِ الأقدارُ كُلَّ كَرامةٍ وحَماكِ تَـنزيلُ السما ومحمدُ
وحَبَاكِ رَبُّ العرش رُوحَ قداسة تصبو النفوسُ لسِرِّها وتودُ
.. مَن للأمومة في حِمانا إنَّها مُلتَــاعَةٌ نيرانُــها لا تخمُــد؟
منكوبةٌ في أُسْـدِها وعَـرِينها وَلْهَى يذوب لما عراها الجلمد

من ذا يكفكف دمعها ودماءها ويذيقُـــها طعم السلو ويُسعِد؟

حسب الأمومة من دخيل رحمة أرضٌ (معمَّـــرة) ووُلْـدٌ أَعبُـــــد

وكفاك منا سَـــــلوةً وتَجِـــلَّةً آمالنا العليا، ونِــعم المُسعِـد

وإلى هنا يكون بوشامة قد أعاد إلى السطح جوهر المشكلة؛ فهي ليست قضية رجل وامرأة، أو قضية أشكال ومظاهر، بل إنها قضية الانسان المستعمر المستعبد، وليس للجزائري أن يقدم للأم في عيدها إلا التجلة والآمال في الحرية وفي غد أفضل.